

الملف الشيعي التونسي (١) بداية الوجود الشيعي في تونس البربر هم مادة التشيع وحماته في شمال أفريقيا

السيد محي الدين القليبي

ظهر مذهب الشيعة في شمال إفريقيا في أواخر القرن الثالث الهجري بعد أن ذهب جماعة من قبيلة كتامة البربرية إلى الحج، فلقبهم داعية الفاطميين باليمن أبو عبد الله الصنعاني، فتأثروا بغزارة علمه، وفصاحة لسانه، وبعد نظره، فدعوه إلى بلادهم المغرب فرحل معهم، واجتمع عليه البربر من كل مكان، فأظهر دعوته لآل البيت فيهم فتأثروا بها، وأخذوا على أنفسهم الجهاد في سبيلها، فنظمهم وسار بهم لفتح طريق الدولة الجديدة، وقامت هذه الدولة العبيدية كما هو مبسوط في التاريخ على يد عبيد الله المهدي الذي بنى لها عاصمة جديدة بالقطر التونسي أسماها المهديّة، لا تزال إلى الآن من عواصم الساحل التونسي^١، وتلت دولة العبيديين الدولة الفاطمية التي ركزت المذهب الشيعي في تونس وكثير من بلاد شمال أفريقيا.

ونشاهد هنا أن البربر كانوا في المائة الثانية عماد مذهب الخوارج، كما كانوا في أواخر المائة الثالثة عماد مذهب الشيعة، ولا نقول إنهم وحدهم قد اعتقلوا هذه المذاهب، بل كانوا هم الأكثرية الساحقة

١- شهدت تونس في الفترة التاريخية قيام الدولة الفاطمية التي اعتمدت في تكوينها على البربر سكان البلاد الأصليين، ولم تكن تونس في الحقيقة في نظر الفواطم إلا همزة الوصل للاستيلاء على مصر، تلك البلاد التي كانوا يمدون أبصارهم إليها من أول الأمر، ويتوقون إلى الانتفاع بخيراتها وموقعها الجغرافي في نشر مذهبهم الديني، وخير ما يذكرنا بعهد الفاطميين في تونس هو مدينة المهديّة التي يدل تأسيسها على ما كان لأسلافنا المسلمين من بعد النظر في اختيار مواضع المدن، فهذا أبو عبيد الله الملقب بالمهدي مؤسس الدولة الفاطمية ما كاد يستقر به المقام في أفريقية حتى رغب في تأسيس مدينة منيعة يتحصن فيها من أعدائه، فخرج يرتاد ساحل البحر، فوجد - على حد وصف ابن الأثير - جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند فبنى فيها مدينته، وخلق عليها اسمه، وجعلها مقراً للملكة، واتخذ من ساحلها ميناء بحرياً كأحسن وأمنع ما تكون الموانئ، حفره في الصخر بعرض سبعة وخمسين متراً وطول ستة وعشرين ومائة متر، وجعله بحيث يكفي لإيواء ثلاثين سفينة وبعد أن انتهى من تخطيط مدينته، أنشأ مسجدها الجامع الذي كانت واجهته مبعث الوحي للمهدي الذي أشرف على إنشاء مسجد الحاكم بأمر الله في القاهرة. وغادر المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع تونس إلى مصر، وعهد بحكمها إلى أسرة بني زيري من قبيلة صنهاجة البربرية.

فيها، وعصب حروبها، ولعل ذلك يرجع إلى حداثة عهدهم بالإسلام، وإلى خوفهم من استيلاء العرب القادمين على النفوذ والسلطان، فيصبحوا محكومين للغير كما كانوا في العهود التي قبل الإسلام، فأرادوا أن يعتصموا بهذه المذاهب، لتكون الدولة بأيديهم، وقد زال هذا الشعور بتقادم العهد، وخصوصاً لما لمسوا بأيديهم أن الإسلام إنما يراعى الأصلح، ويقدم الأتقى، ولا يعترف إلى بالقيم الأخلاقية دون نظر إلى العرق أو اللون أو المنزلة الاجتماعية، فقد أسس البربر كما أسس غيرهم من الأجناس التي دخلت في الإسلام، دولاً كانوا هم عمادها في عصور مختلفة دون أن يتحرج الآخرون، ولذلك نجد الآن برابرة المغرب الأقصى وأكثرية برابرة الجزائر وتونس وطرابلس على المذهب المالكي، ولا تكاد تشعر بين البربر والعرب بفروق، إن العقيدة الإسلامية طغت على كل شيء رغم تمسك البربر بلغتهم وأحرفها التي لا تزال عند البعض منهم، واحتفاظهم بشيء من التقاليد التي كانت لهم من قبل.

بقى المذهب الشيعي الفاطمي سائداً في تونس، وحكومة الشيعة قائمة فيها إلى أوائل القرن الخامس ٤٣٩هـ، حيث طغت على الدولة الفتن، وعصفت بأتباع المذهب الحروب، فانكمش ثم اختفى، إلا أنه ترك مظاهره وآثاره باقية إلى اليوم في كل بلد من بلاد المغرب، ففي مراكش لا يزال آل البيت (الأشراف) عند السكان تقديسهم واحترامهم إلى أبعد حد، يزورونهم أفراداً وجماعات في مواسم مختلفة، يلمسون رضاهم وصالح دعواتهم، وحسن توجيهاتهم، يقبلون أيديهم تبركاً، ويقدمون لهم الهدايا القيمة والأموال الوفيرة، ويبذل رجال القبائل وعلى الأخص البربرية منها كالطوارق وتوات لتزويج بناتهم من أبناء الأشراف كي يحصل لهم الارتباط بالنسب الشريف، وفي قبائل الطوارق (الملمثين) إلى الآن تشاهد الأشراف منهم يضعون النقاب الأسود على وجوههم، أما غيرهم فالنقاب الأزرق وللعبيد النقاب الأبيض.

أما في تونس فإن شهر المحرم شهر حزن لا تقام فيه الأفراح، ولا يأخذ النساء زينتهن، ويوم عاشوراء عندهم يوم حزن شديد، ولآل البيت في تونس مكانتهم كذلك، وإمامة الجامع الأعظم تكاد تنحصر فيهم رغم وجود من هو أعظم منهم، ولعل من بقية عهد الفاطميين الطرق الصوفية التي نشاهد في أسانيدنا كلها على اختلاف شيوخها المنسوبة إليهم، أنها تجمع كلها في الإمام جعفر الصادق والإمام محمد الباقر، وترتفع إلى الإمام علي كرم الله وجهه، ثم إلى مقام التصلية والتسليم، كما تجتمع شجرات الشرف في إدريس الأكبر ابن عبد الله الكامل - السبط -.